



خطبة صلاة الجمعة 11 / 1 / 2019 للشيخ الطيب محمد خير الشعال، في جامع أنس بن مالك، دمشق - المالكي

(كيف أختار صاحبي؟)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرشدًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، وصفيُّه وخليفه، خيرُ نبيِّ اجتباه، وهدى ورحمة للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كره، اللهم صلِّ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: 13].

وقال سبحانه: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾ [يونس: 83]. قال ابن كثير: هم الشباب.

أخرج الحاكم والبيهقي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك».

أيها الإخوة:

نحن في الخطبة الثامنة عشرة من سلسلة (هموم الشباب).

تحدثت الخطب السابقة: لماذا هذه السلسلة، وكيف أترك المعصية، كيف أرضي أبوي، كيف أجد عملاً مناسباً، كيف لي بالزواج، ماذا أقرأ لأفهم ديني، وكيف أجمع بين الدنيا والآخرة، وكيف أجمع بين الهزل والجِد، وكيف أختار تخصصي الجامعي، وكيف يلين قلبي، وكيف أخدم بلدي، وكيف أسيطر على الغضب، وكيف أنجو من الفتن، وكيف أكون محبوباً، وكيف أنظم وقتي، وكيف أكتشف مواهبي وأمنِّيها، وكيف أصير داعية للإسلام؟

عنوان خطبة اليوم: كيف أختار صاحبي؟

تعلمون -أيها الإخوة- أثر الصاحب في صلاح المرء وفساده، وتعاينون تمسك الشباب بأصحابهم وولاءهم لجماعتهم وتأثرهم بهم سلباً وإيجاباً.

ويزداد الارتباط والتأثر شدةً عندما يشعر الشاب بالأمن والراحة مع جماعة أصحابه فيروّي معهم حاجته للانتماء والاحترام والتقدير، خاصة عندما يكون زعيماً في جماعتهم أو مسؤولاً عن دور معين يقدمه لهم، فيثبت من خلاصهم ذاته ويحقق مكانته، بالإضافة إلى ترويضه عن نفسه مع أصحابه وقضاء وقت التسلية والترفيه والفراغ معهم.

ولأن الشاب المسلم الواعي يعلم أن الإنسان كثيراً ما يأخذ معارفه وأخلاقه وما ينتحله من المذاهب والفضائل عن طريق المحاكاة والتقليد لمن حوله؛ تجده حذراً من صحبة من لا يوثق به، ويسأل كيف أختار صاحبي؟

وللإجابة على هذا السؤال أعددت هذه الخطبة، وفيها محوران اثنان أولهما: صفات الصاحب المناسب، وثانيهما: طريقة الاجتماع به والعثور عليه.

أما صفات الصاحب المناسب فأربعة: التقوى، ورجاحة العقل، وحسن الخلق، والمحبة.

فأنت بحاجة إلى صاحب تقي صالح يذكرك إذا نسيت، ويعينك إذا ذكرت، ويبصرك عيوب نفسك، واحذر من صاحب السوء والفسق فإنه يخفي عنك عيوبك، ولا يزال يمدحك حتى تغظم عندك نفسك، وربما نسيت فلم يذكرك، وربما ذكرت فلم يُعَنِّك. روى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوِّءِ كَحَامِلِ الْمَسْكِ، وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحَامِلُ الْمَسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحاً طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ: إِمَّا أَنْ يَحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحاً خَبِيثَةً».

وأما رجاحة العقل؛ فجدير بك ألا تصاحب الحمقى والمغفلين؛ لأن الأحمق يريد أن ينفَعَكَ فيضرك ويريد أن يرفعَكَ فيضعَكَ، وبصحبة العاقل تضم عقلاً إلى عقلك فتفيد منه رجاحة عقل وسلامة تفكير.

وأما حُسن الخلق؛ فإن حَسَنَ الخُلُقِ كَرِيمُ المعشر جميل الخصال حسن التجاوز سليم الصدر، تسرُّك رؤيته ويفيدك منطقه وترفعك صحبتُه.

وأما المحبة؛ فإنه لا خير في صحبة من لا يجد لك من الودّ مثل ما تجد له.

قال الإمام القرطبي عند تفسير قول الله تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾

[الزخرف: 67]: (ذَكَرَ التَّعْلِي: كان خليلان مؤمنان، و خليلان كافران، فمات أحد المؤمنين فقال: يا رب، إِنَّ فلاناً كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك، وكان يأمرني بالخير وينهايني عن الشرِّ، ويخبرني أُنِّي ملائِكَ، يا ربِّ فلا تَضَلُّهُ بعدي، واهديه كما هديتني، وأكرمه كما أكرمتني، فإذا مات خليله المؤمن جمع الله بينهما، فيقول الله تعالى: لِيُثْنِ كُلُّ واحدٍ منكما على صاحبه، فيقول: يا ربِّ، إِنَّه كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك، ويأمرني بالخير وينهايني عن الشرِّ، ويخبرني أُنِّي ملائِكَ، فيقول الله تعالى: نَعَمْ الخليلُ، ونَعَمْ الأخ، ونَعَمْ الصَّاحِب كان.

قال: ويموت أحد الكافرين فيقول: يا ربِّ، إن فلاناً كان ينهايني عن طاعتك وطاعة رسولك، ويأمرني بالشرِّ وينهايني عن الخير، ويخبرني أُنِّي غيرُ ملائِكَ، فأسألك -يا ربِّ- ألا تهديهُ بعدي، وأن تُضِلَّهُ، وأن تُهينهُ، فإذا مات خليلهُ الكافر، قال الله تعالى لهما: لِيُثْنِ كُلُّ واحدٍ منكما على صاحبه، فيقول: يا ربِّ، إِنَّه كان يأمرني بمعصيتك ومعصية رسولك، ويأمرني بالشرِّ وينهايني عن الخير، ويخبرني أُنِّي غيرُ ملائِكَ، فأسألك أن تضاعف عليه العذاب، فيقول الله تعالى: بنس الصَّاحِب والأخ وال خليل، فيلعنُ كُلُّ واحدٍ منهما صاحبه).

فَصَاحِبٌ تَقِيًّا عَالِمًا تَنْتَفِعُ بِهِ
فَصُحْبَةُ أَهْلِ الْخَيْرِ تُرْجَى وَتُطْلَبُ
وَاحْذَرِ مُوَاخَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّهُ
يُعِدِّي كَمَا يُعِدِّي الصَّحِيحُ الْأَجْرُبُ
وَاخْتَرِ صَدِيقًا وَاصْطَفِيهِ تَفَاحُراً
إِنَّ الْقَرِينَ إِلَى الْمَقَارِنِ يُنْسَبُ

هذه الأربعة صفاتُ الصَّاحِبِ الْمُنَاسِبِ: تَقِيٍّ غَيْرِ فَاسِقٍ، وَعَاقِلٍ غَيْرِ مَعْفَلٍ، وَخُلُقٍ غَيْرِ بَذِيءٍ، وَمُحِبٍّ غَيْرِ مُتَكَلِّفٍ.

أما المحور الثاني للخطبة: فما طريقة الاجتماع به والعثور عليه؟

فاعلموا أيها الإخوة أن الله تعالى قال: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: 13]، وقال: ﴿وَإِنْ كَثِيرًا مِنْ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾ [ص: 24] وقال: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (IO) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (II) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (I2) ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (I3) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ [الواقعة: 10 - 14].

وروى الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إنما الناس كإبل** مائة لا يجد الرجل فيها راحلة».

قال المناوي في فيض القدير: (لا تكاد تجد فيها راحلة) أي مرحولة، وهي النجبية المختارة من الإبل، ويقال: هي من الإبل القوي على الحمل والسفر، ... قال الرمخشري: يريد أن المرضي المنتخب في عزة وجوده كالنجبية التي لا توجد في كثير من الإبل، وقال القاضي: معناه لا تكاد تجد في مئة إبل راحلة تصلح للركوب، وطيفة سهلة الانقياد، فكذا تجد في مئة من الناس من يصلح للصحبة فيعاون صاحبه ويلين له جانبه، وقال الراغب: الإبل في تعارفهم اسم لمئة بعير، فمئة إبل عشرة آلاف بعير، فالمراد أنك ترى واحدا كعشرة آلاف وترى عشرة آلاف دون واحد.

وَلَمْ أَرِ أَمْثَالَ الرِّجَالِ تَفَاوَتْ لَدَى الْمَجْدِ حَتَّى عُدَّ أَلْفٌ بِوَاحِدٍ

قال بعضهم: خصَّ ضرب المثل بالراحلة؛ لأن أهل الكمال جعلهم الحق تعالى حاملين عن أتباعهم المشاق، مذللة لهم الصُّعب في جميع الآفاق، لغلبة الخنو عليهم والإشفاق). فلما كان الشكور العدل من الأصحاب قليلاً، ولما كان من يُعتمد عليه ويوثق به من الناس معدوداً، لزم أهل الفطنة والديانة أن يجتهدوا في البحث عن هؤلاء ولو أعياهم البحث، وأن يجدوا السير إليهم وإن أضناهم المسير.

وطريقة الاجتماع بهم أن يكثر أحدنا من الدعاء واللجأ إلى الله تعالى أن يجمعه معهم وأن يحبَّه بهم ويحبَّهم به، كان من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَحُبًّا يُبَلِّغُنِي حُبَّكَ**» [الترمذي]، وكان من دعاء أبي الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [الشعراء: 83]، ودعا سيدنا يوسف عليه السلام بذلك ﴿فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: 101].

ثم بعد هذا أن يطلبهم من مظان وجودهم، وتجدون أمثال هؤلاء الأصحاب في مجالس العلم وموائد الذكر وحلق التربية وبيوت الفضل، مع التنبه إلى أن الجالسين هذه المجالس، الحاضرين هذه الموائد، الملتحقين في هذه الحلقات، الناشئين في هذه البيوت؛ ليسوا سواء، ولعل فيهم من لم يسر بسير أهلها ولم يحد حذوهم.

فالحاصل أنك إن صدقت في طلب القوم وجدتهم، وإن عزمت السير إليهم أدركتهم.

وبعد أيها الشباب: ليختَر أحدكم صاحبه بصفاتٍ أربعة، فالصاحب المناسب لك ينبغي أن يكون
تقياً غير فاسق، وعاقلاً غير مغفل، وخلوقاً غير بذيء، ومحباً غير متكلف.
وابحثوا عن هؤلاء في مجالس العلم والذكر والتربية وبيوت أهل الفضل، واجأروا إلى الله تعالى
بالدعاء أن يجمعكم معهم ويحببهم إليكم ويحببكم لهم.
اللهم إنا نسألك حبك، وحباً من يحبك، وحباً عملٍ صالحٍ يقربنا إلى حبك، اللهم اجعلنا هادين
مَهْدِيَّين، غير ضالين ولا مُضِلِّين، سَلَمًا لأوليائك، عَدُوًّا لأعدائك، نَحْبُ بِحَبِّكَ مَنْ أَحَبَّكَ، ونُعَادِي
بِعَدَاوَتِكَ مَنْ خَالَفَكَ.

والحمد لله رب العالمين